٣ ـ القلب المسكين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أما صاحب القلب المسكين فرَمَقها وهي تلتفت إليه التفات الظبية بسواد عينيها بجمل سوادها الجميل في النظرة الواحدة نظرتين لعاشق الجمال ، تقول إحداهما : أنت ، وتقول الأخرى : أنا ؛ ثم أراها وقد كسرَت أجفانها وتفترتْ في يدي المثل العشيق وأفصح منظرها ببلاغة ... ببلاغة جسم المرأة المحبوبة بين ذراعيْ من تحبه ؛ ثم اختَلجت وصوَّبتْ وجهها ، وأهدَفَت شفتيها ؛ وتلقَّت القبلة

وكان به منها ما الله عليم به ، فانبعثت من صدره آهةٌ مُعولةٌ تئن أنيناً ، غير أنها كلمته بعينيها أنها تقبله هو ؛ فلا ريب قد حملت اليه إحدى النسمات شيئاً جميلاً عن ذلك الفم لمست به النفسُ النفس ، والقبلة هي هي ولكن وقع خطأ في طريقة إرسالها ...

ليس تحت الخيال شيء موجود ، ولكنَّ الخيال المتسرِّح بين الجنبيين تكون فيه أشياء كثيرة واجبة الوجود ، إذ هو بطبيعته مَجرى أحلام من فكر إلى فكر ، ومسرحُ شعور يصدر ويرد بين القلبين في حياة كاملة الاحساس متجاوبة المعاني . وبهذا الخيال يكون مع القلبين المتحابَّين روحٌ طبيعيٌّ كأنه قلب ثالث ينقل للواحد عن الآخر ، ويصل السرَّ بالسر ، ويزيد في الأشياء وينقص منها ، ويدخل في غير الحقيق فيجعله أكثر من الحقيق . ومن هنا لم يكن فرح ولا حزن ، ولا أمل ولا يأس ، ولا سعادة ولا شقاء ، إلا وكل ذلك مضاعف للحب الصادق الحب بقدر قلبين ؛ والذين يعرفون قُبلة الشغف والهوى يعرفون أن العاشق يقبِّل بلذة اربع شفاه

* * *

وانسدلت بعد هذه القبلة ستارة المسرح ، وغابت الجميلة المعشوقة غيبة التمثيل فقلت لصاحب القلب المسكين : إن روحيكما متزوجتان ... قال : آه ، ومدَّها من قلبه كأنه دَنِفٌ سقيم

قلت : وماذا بعد آه ؟

قال : وماذا كان قبلها ؟ إنه الحب فيه مثل ما في (عملية جراحية) من تنهدات الألم ولذعاته ، غير أنها مفرقة على الأوقات والأسباب مبعثرة غير مجموعة . « آه » ؛ هذه هي الكلمة التي لا تفرغ منها القلوب الانسانية ، وهي تقال بلهفة واحدة في المصيبة الداهمة ، والألم البالغ ، والمرض المدنف ، والحب الشديد . فحيثما توشك النفس أن تختنق تتنفس « بآه »

قلت : أما رأيتها مرة وقد أوشكت نفسها أن تختنق ... ؟

قال : لقد هجْت لي داءً قديماً ؛ إن لهذه الحبيبة ساعات مغروسة في زمني غرس الشجر ، فبين الحين والحين تثمر هذه الساعات مرها وحلوها في نفسي كما يثمر الشجر المختلف ؛ ولقد رأيتها ذات مرة في ساعة همها ؛ ثم ضحك وسكت

قلت : ياعدوَّ نفسه ! ماذا رأيت منها ؟ وكيف أراك الوجدُ ما رأيتَ منها ؟

قال : أتصدِّقني ؟ قلت : نعم .

قال : رأيت الهمَّ على وجه هذه الجميلة كأنه همٌّ مؤنَّث بعشقه همٌّ مذكر ... فله جمال ودلال وفتنة وجاذبية ، وكأن وجهها يصنع من حزنها حزنين : أحدهما بمعنى الهم لقلبها والآخر بمعنى الثورة لقلبي .

قلت : ياعدو نفسه هذا كلام آخر ؛ فهذه امرأة ناعمةٌ بضَّةٌ مطوى بعضُها على بعضها ، لَفَّاء من جهة هَيفاء من جهة ، ثقيلةُ شيءٍ وخفيفةُ شيءٍ ، جمعت الحسنَ والجسم وفنًّا بارعا في هذا وفنًّا مُفرِدا في ذاك ، وهي جميلةُ كلِّ ما تتأمل منها ، ساحرةُ كلِّ ما تتخيل فيها ، وهي مزَّاحة دَحْدَاحةٌ[1] وهي تطالعك وتطيعك ، وأنت امرؤٌ عاشق ورجل قويُّ الرجولة ؛ فالجميلة والمرأة هما لكَ في هذا الجسم الواحد ، إن ذهبتَ تفصلهما في خيالك امتزجتا في دمك ؛ ولو أمسكتْ آلةُ التصوير نظراتك إليها لبانت فيها أطرافُ اللهب الأحمر مما في نفسك منها . ولعَمري لو مرت عربة تَدْرجُ في الطريق ونظرتَ إليها نظرتك لهذه المرأة بهذه الغريزة المحتَبَسة المكفوفة[2] لظننتَ

(١) هذه كلمة استعملها بعض المولدين في معنى الظريفة (المدردحة) وليس كذلك معناها في اللغة ، ولكن الاستعمال صحيح عندنا واللغة لاتأباه

(٢) يستعمل الكتاب في هذا المعنى لفظ (المكبوتة) وهو تعبير ضعيف والأفصح ماذكرنا هنا

سترى العجلة الخلفية عاشقاً مهتاجاً يطارد العجلة الأمامية وهى تفر منه فرار العذراء . . .

* * *

فضحك وقال : لا ، لا . إن نوع التصوير لأنسان هو نوع المعرفة لهذا الانسان ، ومن كل حبيب وحبيبة تجتمع مقدمة ونتيجة بينهما تلازم فى المعنى ؛ والمقدمة عندى أن إبليس هنا فى غير إبليسيته ، فلا يمكن أن تكون النتيجةُ وضعَه فى إبليسيته . وما أتصور فى هذه الجميلة إلا الفنَّ الذى أسبغه الجمال عليها ، فهى فى معرفتى وخيالى كالتمثال المبدَع بداعة لا يستطيع أن يعمل عملاً إلا إظهارَ شكله الجميل التام حافلاً بمعانيه .

ليست هذه المرأة هى الأولى ولا الثانية ولا الثالثة فيمن أحببت ؛ إنها تكرار وإيضاح وتكملة لشئ لا يكمل أبداً ، هو هذه المعانى النسوية الجميلة التى يزيد الشيطانُ فيها من عشق كل عاشق . إن بطن المرأة بلد ، ووجه المرأة بلد

قلت : هذا إن كان وجهها كوجه صاحبتك ، ولكن ما بال الدميمة ؟

قال : لا هذا وجهٌ عاقر ...

* * *

قلت : ولكن الخطأ فى فلسفتك هذه أنك تنظر إلى المرأة نظرةً عملية تريد أن تعمل ثم تمنعها أن تعمل ؛ فتأتى فلسفتك بعيدة من الفلسفة ، وكأنك تغذو المدةَ الجائعة برائحة الخبز فقط

قال : نعم هذا خطأ ، ولكنه الخطأ الذى يخرج الحقائق الخيالية من هذا الجمال ؛ فاذا سخرتَ من الحقيقة المادية بأسلوب فبهذا الأسلوب عينه تُثبت الحقيقة نفسها فى شكل آخر قد يكون أجمل من شكلها الأول

أتعلم كيف كانت نظرتى الى نور القمر على هذه والى حسن هذه على القمر ؟ إن القمر كان يُنسينى بشريَّتَها فأراها متممة له كأنه ينظر وجهه فى مرآة ، فهى خيال وجهه ؛ وكانت هى تُنسينى مادية القمر فأراه متمما لها كأنه خيال وجهها

أتدرى ما نظرةُ الحب ؟ إن فى هذا القلب الانسانى شرارةً كهربائية متى انقدحتْ زادت فى العين ألحاظاً كشَّافة وزادت فى الحواس أضواءً مُدرِكة ، فينفذ العاشق بنظره وحواسه جميعاً فى حقائق الأشياء فتكون له على الناس زيادة فى الرؤية وزيادة فى الادراك يعمل بها عملا فيما يراه وما يدركه . وبهذه الزيادة الجديدة على النفس تكون للدنيا حالةٌ جديدة فى هذه النفس ؛ ويأتى السرور جديداً ويأتى الحزن جديداً أيضاً . فألفُ قُبلة يتناولها ألف عاشق من ألف حبيب ؛ هى ألف نوع من اللذة ولو كانت كلها فى صورة واحدة . ولو بكى ألف عاشق من هجر ألف معشوق لكان فى كل دمع نوع من الحزن ليس فى الآخر

* * *

قلت : فنوعُ تصورك لهذه الراقصة التى تحبها ، أن إبليس هنا فى غير ابليسيته . . . .

قال : هكذا هى عندى ، وبهذا أسخر من الحقيقة الأبليسية

قلت : أو تسخر الحقيقة الأبليسية منك وهو الأصح وعليه الفتوى . . . .

فضحك طويلا وقال : سأحدثك بغريبة . أنت تعرف أن هذه الغادة لا تظهر أبداً إلا فى الحرير الأسود ؛ وهى رقيقة البشرة ناصعة اللون فيكون لها من سواد الحرير بياضُ البياض وجمال الجمال . فلقد كنت أمس بعد العشاء فى طريق الى هذا المكان لأراها ، وكان الليل مظلماً يتدجَّى ، وقد لبس وتلبَّس وغلب على مصابيح الطريق فحصر أنوارها حتى بين كل مصباحين ظلمةٌ قاتمة كالرقيب بين الحبيبين يمنعهما أن يلتقيا ؛ فبينا أقلِّب عينى فى النور والنَّسق وأنا فى مثل الحالة التى تكون فيها الأفكار المحزنة أشدَّ حزناً — إذ رفع لى من بعيد شبحٌ أسود يمشى مشْيته متفتِّرا قصير الخَطْو يهتز ويتبختر ؛ فتبصرته فى هيئته فما شككت أنها هى ، وفتحت الجنة التى فى خيالى وبرزت الحقائق الكثيرة تلتمس معانيها من لذة الحب ، وكان الطريق خالياً فأحسست به لنا وحدنا كالمسافة المحصورة بين قرنين متعاشقين يدنو أحدهما من الآخر ، وأسرعت إسراعَ القلب إلى الفرصة حين تمكن ، فلما صرت بحيث أتبين ذلك الشبح

إذا هو . . . إذا هو قسّيس . . . . . .

* * *

فقلت : يا عجباً ، ما أظرفَ ما داعبك إبليس هذه المرة وكأنه يقول لك : إيه ياصاحب الفضيلة ...

وكان الممثلون يتناوبون المسرح ونحن عنهم فى شغل إذ لم تكن نوبتها قد جاءت بعد ؛ وألقى الشيطانُ على لسانى فقلت لصاحبنا : ماعنعنك أن تبعث اليها فلاناً يستفتح كلامها ثم بدءوها فليس بينك وبينها كلمة تعالَ أو تفضّلى

قال : كلا ، يجب أن تنفصل عنى لأراها فى نفسى أشكالاً وأشكالاً ؛ ويجب أن تبتعد لأُلمسها لمساتٍ روحية ؛ ويجب أن أجهل منها أشياء لأحقق فيها علم قلبى ؛ ويجب أن تدعَ جسمها وأدعَ جسمى وهناك نلتقى رجلاً وامرأة ولكن على فهم جديد وطبيعة جديدة . بهذا الفهم أما أكتب وبهذه الطبيعة أنا أحب

ماهو الجزء الذى يفتنى منها ؟ هو هذا الكل بجميع أجزائه

وما هو هذا الكل ؟ هو الذى يفسر نفسه فى قلبى بهذا الحب

وماهو هذا الحب ؟ هو أنا وهى على هذه الحالة من اليأس

نعم أنا يائس ولكن شعور البؤس هو نوع من الغنى فى الفن لا يكون هذا الغنى إلا من هذا الشعور المؤلم . والحبيب الذى لا تناله هو وحده القادرُ قدرةَ الجمال والسحر ؛ يجعلك لا تدرى أين يختبىء منه جماله فيدعك تبحث عنه بلذة ؛ ولا تدرى أين يُسفِر منه جماله فيدعك تراه بلذة أخرى . أنا أنضج هذه الحلوى على نار مشبوبة ؛ على نار مشبوبة فى قلبى

قلت : يا صديق المسكين هذه مشكلة عرضتْ بها المصادفة وستحلها المصادفة أيضاً . وما كان أشد عجبى إذ لم أفرغ من الكلمة حتى رأينا (المشكلة) مقبلة علينا . . .

أما هو : أما صاحب القلب المسكين ؟

(لنا بقية) عبد الرحمن صدقى

(رمى القلم) أوشكت المطبعة أن تتم طبع هذا الكتاب فنرجو من كل مشترك غيّر عنوانه أن يكتب إلينا بعنوانه الجديد

(الرائض)

المشـــيرة عايدة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

قلما يستطيع الانسان أن يضع نفسه موضع إنسان آخر فى أمر يعنيه ، ولو كان هذا يسعه فى كل حال لكان الأرجح أن يضحكه الذى يمضه ويثقل عليه أو يبكيه . — فى هذا كنت أفكر وأنا أسمع قصة صديق وكان قد دخل على وهو ينفخ ويمسح العرق المتصبب — عرق الخجل لا التعب والنصب ، فانه صاحب سيارة فخمة ضخمة لا تتعب الراكب ولا تكلفه جهداً غير النظر إلى الطريق وسكون الأعصاب واتزانها وهو يمرق بها بين المارة الذين لا يحلو لهم السير إلا وسط الشارع كأنما كان الشارع متنزهاً عاما وكأنما ينبغى على سائق السيارة أن يسير بها فوق الرصيف ليفسح لهم

وكان يحاول أن يقص على القصة وهو يمسح وجهه بالمنديل فكان نصف ما يقول يخرج مخنوقا فى مطاوى المنديل فقلت له : « هلا انتظرت حتى ينشف هذا العرق »

فغضب وقال : بلهجة المعاتب « وأنت أيضاً . . ؟ ؟ »

فقلت : له وأنا أحاول أن أفيء به إلى الرضى « إنما أردت أن أقول إن المنديل يغيب فيه بعض الكلام فيجيء ما أسمع غير مفهوم . . على كل حال يحسن أن تبدأ من البداية »

قال : « البداية ؟ . يا خبر ! »

قلت : « عمن تتحدث ؟ . . يخيل إلى أنك ذكرت اسماً . . . »

قال : نعم . . عايدة . . »

قلت : « آه . . عايدة ؟ ؟ ومن عسى أن تكون هذه المجرمة ؟ ؟ »

قال : ألا تعرفها ؟ . هذا مدهش . . كيف يمكن . ؟ »

قلت : « يا أخى لا تغضب . . إنك تعرف أن ذاكرتى خوانة . . وليس من النادر أن أنسى أسماء من أعرف من الناس . . فاذا سمحت بأن تذكرنى بها فأنى أعدك أن . . »